﴿ بَلۡ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ مِن قَبۡلُۖ وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ٢٨ ﴾ [الأنعام: 28]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ربـــطُ مـــآلِ الكافرِين في نار الآخـــرةِ بسُوء النّوايَا، وفسادِ الطّوايَا في الدّنيا

لَمّا حدَّثنا بيانُ اللّه تعالى في الآيةِ السّابقةِ عن حال الكافرين، عند إحضارِهم إلى النّار يومَ القيامة، واصطلائِهم بعذابها، وتَمنّيهم أن يعودوا إلى الدّنيا ليكونوا منَ المؤمنين الصّادقين، وقد جاء بيانُ اللّه تعالى في هذه الآيةِ الكريمةِ؛ ليَفضَحَ نواياهُم، ويَكشفَ خباياهم، في إخفائِهمُ المقاصدَ الفاسدةَ الَّتي انطوَت عليها قلوبُهمُ الحاقدةُ، وما اتّصفوا به من كُفرٍ ومُكابرةٍ، مؤكِّدًا بأنَّهم كَذَبوا في هذه الأمنيّةِ، وإنَّما قصدُهم أن يَدفعوا عن أنفسِهمُ العذابَ، وذلك لا يتأتّى مع كونِهم كاذبين فيما يدّعون.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بَدَا﴾: بَدَوَ: الباء والدّال والواو أصلٌ واحدٌ، وهو ظهورُ الشَّيءِ. يُقالُ: بدا الشَّيءُ يَبدو: إذا ظَهَرَ، فهو بادٍ، وسُمّيَ خلافُ الحضَر بَدْوًا من هذا؛ لأنَّهم في بَرازٍ منَ الأرض، وليس لهم قُرًى تسترُهم أبنيتُها، وكلُّ شيءٍ ظهر لك فقد بدا لك، قال الشّاعر:

قَد كُنَّ يَخبَأْنَ الوُجوهَ تَستُّرًا *** فالآنَ حينَ بَدَوْنَ لِلنُّظّارِ[1]

وأبديتُه: أظهرتُه. وقُرئَ قولُه تعالى: ﴿هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ﴾ [هود: 27]؛ أي: في ظاهر الرّأي[2]، وفي الحديث: «نَهَى النَّبيُّ ﷺ عَنْ بَيْعِ الثَّمَرَةِ حَتَّى يَبْدوَ صَلاحُها»[3]، والباديّةُ خلافُ الحاضرة[4].

(1) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (بدو).
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (بدا).
(3) البخاري، الصحيح، الحديث رقم: (1415): 2/541.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بدو)، الحميري، شمس العلوم: (بدا).

وتقولُ: بَدا لي في هذا الأمر بَداءٌ؛ أي: تَغيَّر رَأيي عمّا كان عليه[1]، وجاء الفعلُ ﴿بَدَا﴾ في سياق الآيةِ الكريمةِ بالمعنى الأوَّل، وهو ظهورُ الشَّيء؛ أي: ظهرَ لهم ما كانوا يُخفون.

2) ﴿يُخْفُونَ﴾: (خَفيَ) الخاء والفاء والياء، أصلان متباينان متضادّان. فالأوّل السَّترُ، والثّاني الإظهارُ. فالأوّل خَفيَ الشّيءُ يَخفَى، وأخفيتُه، وهو في خُفيةٍ وخفاءٍ، إذا سترتَه، ويقولون: برِحَ الخفاءُ، أي وضح السّرُّ وبدا، والثّاني: خفا البرقُ خَفْوًا، إذا لمَعَ، ويقال خَفيتُ الشّيءَ، إذا أظهرتُه[2]، وبعضُهم يجعلُ حرفَ الصِّلة فارقًا فيقولُ: خَفي عليه، إذا استترَ، وخَفي له، إذا ظهرَ، فهو خافٍ، وخَفي أيضًا[3]، والخفيُّ: الخافي، قال تعالى: ﴿مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشّورى: 45][4] والخِفاء ما يُستَترُ به كالغطاءِ، وأخفيتُه إذا سترتُه وهي مقابلُ الإبداءِ والإعلانِ، قال تعالى: ﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: 271]، والاستخفاءُ طلبُ الخفاء قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ﴾ [هود: 5][5] ومعنى ﴿مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾ إمّا ما كانوا يفعلون ويخفون، أو ما كانوا يُخفون من عذابِ الآخرة الّذي يُنكرون، وكِلا المعنيين صحيحٌ.

3) ﴿رُدُّواْ﴾: رَدَّ: الرّاء والدّال أصلٌ واحدٌ مُطَّردٌ مُنقاسٌ، وهو رَجْعُ الشَّيء وعَودُه، تقولُ: رَدَدتُ الشَّيءَ أَرُدُّهُ رَدًّا، وأُعيدُه عَوْدًا. وسُمّيَ المُرتَدُّ بهذا الاسم؛ لأنَّه ردَّ نَفسَه إلى كُفرِه، وأعادَها إليه. والرَّدُّ: عِمادُ الشَّيء الَّذي يَرُدُّهُ؛ أي: يُرجِعُه عنِ السُّقوط والضَّعف. والمَردودةُ: المرأةُ المُطلَّقةُ. ويُقالُ: شاةٌ مُرِدٌّ، وناقةٌ مُرِدَّةٌ، وذلك إذا أضرَعَتْ، كأنَّها لم تكنْ ذاتَ لَبَنٍ فرُدَّ عليها، أو رَدَّتْ هي لَبَنَها. ويُقالُ: هذا أمرٌ لا رادَّ له، أي: لا مَرجوعَ له ولا فائدةَ فيه[6]، والارتداد: الرّجوع؛ ومنه المُرتَدُّ، واستردّه الشّيء: سأله أن يَرُدَّهُ عليه، والرِّدِّيدَى: الرّدُّ، وفي الأثرِ: «لا رِدّيدَى في الصّدقة»[7].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بدا).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خفي).
(3) الفيوميّ، المصباح المنير: (خفي).
(4) الحميري، شمس العلوم: (خفي).
(5) سميح عاطف الزّين، تفسير مفردات ألفاظ القرآن الكريم: (خفي).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ردّ).
(7) الجوهريّ، الصّحاح: (ردد). والأثر قولُ عمرَ بن عبد العزيز رحمه الله. يُنظر: أبو عبيد، غريب الحديث: (خلف).

4) ﴿نُهُواْ﴾: منَ النّهي: خلافُ الأمر، تقولُ: نهيتُه عنه، وفي لغة: نهوْتُه عنه[1] ويقال: نهاه ينهاه نهيًا، فانتهَى وتناهَى، أنشد سيبَويه لزيادِ بن زيدٍ العُذريِّ:

إذا ما انْتَهَى عِلْمي تَناهَيْتُ عِنْدَهُ *** أَطالَ فَأَمْلَى أَوْ تَناهَى فَأَقْصَرا[2]

وتناهَوْا عنِ الشّيءِ: نهى بعضُهم بعضًا، وفي التّنزيل: (كانوا لا يَتَناهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلوهُ) [المائدة: 79]، وقد يجوزُ أن يكونَ معناهُ يَنتهون[3]، وهم أمَرَةٌ بالمعروفِ نُهاةٌ عنِ المنكر. وهو نَهْوٌ عن الشّرِّ. وما تنهاهُ عنّا ناهيةٌ، أي ما تكفُّه كافّةٌ، وما ينظرُ في أوامرِ اللّه ونواهيه[4]، والنَّهيُ قد يكونُ نهيًا من حيثُ المعنَى أو اللَّفْظُ.

فالأوّلُ من حيثُ المعنى قد يكونُ بالقولِ أو بغيرِه، وما كانَ بالقولِ، فلا فرقَ بين أن يكونَ بلفظةِ (افعلْ)، نحوَ: اجْتَنِبْ كذا، أو بلفظِ (لا تَفعل)، والثّاني: من حيث اللَّفظُ هو قولُهم: (لا تفعل كذا)، وقيل إنّ ذلك نَهْيٌ من حيثُ اللَّفظُ والمعنَى جميعًا، نحوَ قولِه تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ [البقرة: 35][5].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

التّأكيدُ على بُدوِّ ما أُخفيَ من حالِ الكَفرةِ، وأنّهم لا ريبَ عائدُون لمَا نُهُوا عنه

يُخبرُنا بيانُ اللّه تعالى في جليل كلامِه، أنَّه قد ظهرَ للكافرينَ يومَ القيامة ما كانوا يُخفونَه في أنفسِهم منَ الكُفرِ والتَّكذيبِ والمعانَدةِ، وإنْ أَنكروا ذلك وتناسَوْهُ، ويُحتَملُ أنَّهم قد ظهرَ لهم ما كانوا يَعلمونَه من أنفسِهم من صِدْقِ ما جاءَتْهم به الرُّسُلُ في الدُّنيا، وإنْ كانوا يُظهِرونَ لأتباعِهم خلافَه، كما قال تعالى مُخبِرًا

(1) الخليل، العين: (نهي).
(2) البغداديّ، خزانة الأدب: 11/182، وابن منظور، لسان العرب: (نهي)، والزبيدي، تاج العروس: (نهي).
(3) ابن سيده، المحكم (نهي).
(4) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (نهي).
(5) الرّاغب، المفردات، ابن منظور، لسان العرب: (نَهَى).

عن فرعونَ وقومِه: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النَّمل: 14]، وهم ما طَلبوا العَوْدَ إلى الدُّنيا رَغبةً ومحبَّةً في الإيمان؛ بل خَوفًا منَ العذابِ الَّذي عايَنوه جزاءَ ما كانوا عليه منَ الكُفر، فسألوا الرَّجعةَ إلى الدُّنيا؛ ليتَخلَّصوا ممّا رأته أعينُهم منَ النّار، ولهذا أخبرَنا بيانُ اللّه تعالى، أنَّه لو حُقِّقَ لهم طَلَبُهم ذاك لَرجعوا لما نُهوا عنه منَ الكُفر والمعاندةِ، وذلك دَيدنُهم الّذي عليه دأبوا، وبه عُرفوا، وهم كاذبونَ لا مَحالة، في دعواهُم خلافَ ذلك[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

أثرُ ﴿بَلْ﴾ في البيان:

قوله تعالى: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾ إضرابٌ عمّا يُنبئ عنه التَّمنّي منَ الوعد بتصديق الآيات، والإيمانِ بها، أي: أنّ ذلك لم يكن عن عزيمةٍ صادقةٍ منَ الكافرينَ، ناشئةٍ عن رَغبةٍ في العَوْدِ للإيمان الَّذي جَحدوه في الدُّنيا، بل لأنَّه ظهرَ لهم الآن ما أكرهَهُم في هذا الموقفِ العصيبِ؛ ليقولوا ما قالوا أمامَ النّارِ الَّتي سَيَصلَونَها شاؤوا أم أَبَوا. وقد سيقَ الكلامُ لتهويلِ أمْرِ النّار، والتَّعجُّبِ من فظاعة حالِ الموقوفينَ عليها، وبإخفائِهم تكذيبَهم بها، فإنَّ التَّكذيبَ بالشَّيءِ كفرٌ به وإخفاءٌ له لا مَحالةَ، وإيثارُه على صريحِ التَّكذيبِ الواردِ في قولِه تعالى: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الطّور: 14]، مع كونِه أنسبَ لما قبْلَه في الآيةِ السّابقةِ من قولِهم: ﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾ [الأنعام: 27]؛ ذلكَ لمراعاة ما في مُقابَلَتِه منَ البُدوّ، وهو الَّذي تَستَدعيهِ جزالةُ النَّظم الكريم.

من أسرَّ سريرةً ألبسَه اللّه رِداءَها

بلاغةُ المجازِ في قوله تعالى: ﴿بَدَا لَهُم﴾ ودلالةُ انْتقاءِ الفعلِ ﴿بَدَا﴾:

بدا الشَّيء: ظَهَرَ، ويُقالُ: بَدا له الشَّيءُ إذا ظهرَ له عيانًا، وليس

(1) ابن كثير، تفسير القرآن الكريم: 2/120.

زوالُ الشَّكِّ في الشَّيءِ وظهورُ الحقيقةِ في وقتٍ لا ينفعُ فيه الاعترافُ

الأمرُ هنا كذلك، بل هو هنا مجازٌ في زوالِ الشَّكِّ في الشَّيءِ، ولَمّا قوبلَ ﴿بَدَا لَهُم﴾ في هذه الآية بقولِه تعالى: ﴿مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ مِن قَبۡلُۖ﴾ عَلِمْنا أنَّ البَداءَ هو ظهورُ أمرٍ في أَنْفُسِهم كانوا يُخفونَه في الدُّنيا، أي: خطَرَ لهم حينئذٍ ذلك الخاطرُ الَّذي كانوا يُخفونَه، أي: الَّذي كان يبدو لهم، أي: يَخْطُرُ ببالِهم وقوعُه فلا يُعلِنون به، فبدا لهمُ الآن فأعلَنوا به وصرَّحوا به، وهذا المعنَى الدَّقيقُ لا يتحقَّقُ إلّا بالفعل ﴿بَدَا﴾، كما تبيَّن[1].

بلاغةُ الاحتباك، في قوله تعالى: ﴿بَلۡ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ مِن قَبۡلُۖ﴾:

ذكْرُ الدّليلِ على ما يُحذفُ من بلاغةِ التّركيبِ

قولُه تعالى: ﴿بَلۡ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ مِن قَبۡلُۖ﴾ في الكلام احتباكٌ، وتقديرُه: (بل بدا لهم ما كان يبدو لهم في الدّنيا، فأظهروه الآن، وكانوا يُخفونَه)، وذلك أنّهم كانوا يَعرضُ لهم الإيمانُ لِما يَرَوْن من دلائلِه الغالبةِ وبراهينِه القاطعةِ، وما يؤكّدُه واقعُ الأحداثِ من نصْرِ المؤمنين، فيصدُّهم عنه العِنادُ والحِرصُ على استبقاءِ السّيادةِ، والأنفةِ منَ الاعترافِ بفضلِ الرّسولِ، وبسبْقِ المؤمنين إلى الخيراتِ قبْلَهم، وفيهم ضُعفاءُ القومِ وعبيدُهم، كما ذُكرَ عند قولِه تعالى: ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ﴾ [الأنعام: 52] وقد أشار إلى هذا المعنى قولُه تعالى: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ۝٢﴾ [الحجر: 2][2].

دلالةُ مرجعِ ضَميرِ الجمْعِ الغائبِ (لهم) من قولِه تعالى: ﴿بَلۡ بَدَا لَهُم﴾:

الضَّميرُ يجمعُ الكُفَّارَ والمُشركين وأهلَ الكتابِ والمُنافقين

مرجعُ ضميرِ الجمعِ الغائبِ (لهم) في قولِه تعالى: ﴿بَلۡ بَدَا لَهُم﴾، قد يعودُ الضّميرُ إلى كفّارِ مكّةَ أو للكفّار الَّذين أَخْفَوْا الخوفَ عن أتباعهم، أو لليهود والنَّصارى وسائر الكفّارِ، على أنَّ الضَّميرَ في ﴿لَهُم﴾ و﴿يُخۡفُونَ﴾، عائدٌ على جِنْسٍ واحدٍ، ويمكنُ أن يكونَ الضَّميرُ مختلفًا كأن نقول: (بَدا للأَتباعِ ما كانَ الرّؤساء يُخفونَه عنهم منَ الفساد أو أنّه

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/185.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/185.

بَدا لمشركي العربِ، ما كان أهلُ الكتابِ يُخفونَه عنهم، أو أنَّه بدا لهم، أي: لبعضِهم ما كان يُخفيه عنه بعضُهم، فأطلق كُلًّا على بعضٍ مجازًا. ويَصحُّ أن يكونَ مقصودُ الآية الإخبارَ عن هَوْلِ يوم القيامة، فعبَّرَ عن ذلكَ بأنَّهم ظَهرتْ لهم مَسْتوراتُهم في الدُّنيا، من معاصٍ وغيرِها، أو أنَّ المرادَ أنَّه بدا لهم، أي: لمن تقدَّمَ ذكرُهم ما كانوا يُخفونَ من النّاسِ من قبائحِهم وفضائحِهم في صُحُفِهم وشهادةِ جوارحِهم عليهم[1]، وهذا من مُعجزِ اللّغة حيث ينفسحُ الضّميرُ لجملةِ تأويلاتٍ كلُّها مقنعٌ وفصيحٌ، ويُمكنُ أن يتساوق معه المعنى وتُشحنَ به الدّلالةُ.

سرُّ استعمالِ اسمِ الموصول (ما)، في قوله تعالى: ﴿مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ﴾:

المبالغةُ في وصفِ قبائحِ المُنكرين الَّتي كانوا يُخفونَها

قولُه تعالى: ﴿مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ﴾ المرادُ بما يخفون، النّارُ التّي وُقفوا عليها، إذ هي التّي سيقَ الكلامُ لتهويل أمرِها، والتّعجيبِ من فظاعة حالِ الموقوفين عليها، ومن إخفائِها تكذيبُهم بها فإنَّ التّكذيبَ بالشّيءِ كفرٌ به، وإخفاءٌ له وإيثارُه على صريح التّكذيبِ الواردِ في قولِه ﷻ: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ۝٤٣﴾ [الرّحمن: 43]، وقولِه تعالى: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٤﴾ [الطّور: 14]، مع كونِه أنسبَ بما قبْلَه، من قولِهم: ﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾، "لمراعاةِ ما في مقابلته منَ البُدوّ، هذا هو الّذي تستدعيه جزالةُ النّظمِ الكريم، وأمّا ما قيلَ من أنّ المرادَ بما يُخفون: كفرُهم ومعاصيهم، أو قبائحُهم وفضائحُهم الّتي كانوا يكتُمونَها من النّاس، فتظهرُ في صحُفِهم، وبشهادةِ جوارحِهم عليهم، أو شِرْكُهُمُ الّذي يَجحَدون به في بعض مواقفِ القيامة، بقولهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾، ثمّ يظهرُ بما ذُكر من شهادةِ الجوارحِ عليهم وغيرِ ذلك ممّا كانوا يُخفون من حقائقِ الدّين، في التّوحيدِ والنُّبوّةِ واليومِ الآخرِ[2].

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/13، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/477 - 478.

(2) الواحدي، الوسيط: 3/263، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 6/410، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/377 - 478.

بديعُ المقابلةِ بين ﴿بَدَا لَهُم﴾، وقولِه تعالى: ﴿مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾:

ما يُخفِيه النّاسُ في الدُّنيا سوف يظهرُ في الآخرةِ

لمّا قوبِلَ قولُه: ﴿بَدَا لَهُم﴾ في هذه الآيةِ، بقولِه تعالى: ﴿مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾، عُلِمَ بذلكَ أنَّ البداءَ، هو ظهورُ أمرٍ في أَنفُسِهم، كانوا يُخفونَه في الدُّنيا، أي: خَطَرَ لهم حينئذٍ ذلكَ الخاطرُ الَّذي كانوا يُخفونَه، أي: الَّذي كانَ يَبْدو لهم، أي: يخطُرُ ببالِهم وقوعُه، فلا يُعلنونَ به، فبدا لهم الآنَ، فأَعلَنوا به وصرَّحوا مُعترِفينَ به، والعبارتان تُفيدان حالتَيْن يتقابلُ فيهما المعنى تِباعًا فهو يقول: (فبدا لهم آنئذٍ ماكانوا يخفون من قبل)، وهي في غاية البيان المُفصحِ الجميلِ.

دلالةُ استعمالِ قولِه تعالى: ﴿مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ﴾، عِوضًا عن (أَخْفَوا):

تحقُّقُ إخفائِهم لِما كانوا يعلَمونَ صِدْقَه، واستمرارُهم في ذلك

في قولِه تعالى: ﴿مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ﴾ اسْتعملَ بيانُ اللّهِ الفعلَ الماضي النّاقصَ ﴿كَانُواْ﴾ مُسنَدًا إلى الفعلِ المضارعِ ﴿يُخْفُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على أمرين: الأوَّلُ: التَّحقُّقُ والتَّأكيدُ على أنَّ هناك أمورًا كانوا يُخفونَها وذلكَ باسْتخدامِ الفعلِ الماضي ﴿كَانُواْ﴾، والثّاني: أنَّ الفعلَ المضارع ﴿يُخْفُونَ﴾ يفيدُ تجدُّدَ ما كانوا يُخْفونَه واستمرارَه، حتَّى وافاهُم أجلُهم وهُم على هذه الحالة. وهذان المعنيانِ الجليلانِ، لا يتحقَّقان باستخدامِ الفعْلِ (أَخْفَوْا).

دلالةُ (الواوِ) بين العطفِ والاستئنافِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ﴾:

الارتـــدادُ إلى الغَيِّ بعدَ المصيرِ دالٌّ على سُوءِ التّقديرِ

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ﴾ عاطفةٌ، ويُمكنُ أنْ تكونَ اسْتئنافيَّةً، وهي في مَعرِضِ الإخبارِ عن أمرٍ غيبيٍّ لايعلمُه إلّا اللّه [1] ﷻ. والجُملةُ تعني أنّهم لو ردَّهم اللّه إلى الدّنيا بعد وقوفِهم على النّارِ لعادوا إلى سوءِ ما كانوا فيه يَرفلون وفي حَمأتِه يخوضون ممّا نُهوا عَنْهُ في الدّنيا منَ الكُفرِ البَواحِ والإنكارِ الصُّراحِ.

(1) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 2/282 - 283.

دلالةُ قطْعِ الظّرف ﴿قَبۡلُۖ﴾:

يتناسبُ قطْعُ الظّرفِ، مع قطْعِ ادّعائِهمُ الكاذبِ

دلَّ قولُه تعالى: ﴿مِن قَبۡلُۖ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ مِن قَبۡلُۖ﴾: على أنَّ إخفاءَهم كانَ في بعضِ الزَّمان، أي: ما يدَّعونَ أنَّه خَفيٌّ في ذاكَ الزَّمانِ المُتقدِّمِ في حياتهم الدُّنيا؛ بل لا حقيقةَ له[1].

دلالةُ أسلوبِ الشّرطِ في تجليةِ المعنى، في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ﴾:

مَن شبَّ على شيءٍ شابَ عليه، ومَن اعتادَ مَنهيًّا عادَ إليه

هذا القولُ الكريمُ مصدَّرٌ بأداةِ الشّرط ﴿وَلَوۡ﴾، وفي الأسلوبِ الشّرطيِّ ارتقاءٌ في إبطال قولِهم، ونسْفِ دَعواهُم، حتَّى يكونَ بمَنزلةِ التَّسليمِ الجَدَليِّ في المُناظرةِ؛ أي: لو أُجيبتْ أُمْنيتُهم، ورُدّوا إلى الدُّنيا، لعادوا لتكذيبِهم وإنكارِ البعثِ؛ وذلكَ لأنَّ كفرَهم ناشئٌ عن كِبْرٍ وجحودٍ للآيات البيِّنات، فالنُّفوسُ والعقلُ والتَّفكيرُ، كلُّ ذلكَ هوَ هو، في الدُّنيا وفي الآخرةِ، مَحكومٌ بالأهواءِ والشَّهواتِ، وسيعودُ حكمُها عليهم فيما لو تحقَّقتْ أُمنيتُهم ورجعوا إلى الدُّنيا[2]، وهذا تأكيدٌ لما أفادَه نظمُ الشَّرطِ في أداتِه ﴿وَلَوۡ﴾ وفعلِه وجوابِه.

نُكتةُ التّعبيرِ بالرَّدِّ في الشّرطِ والعَوْدِ في الجواب:

مَن ألِفَ التّكذيبَ والمُكابرةَ لم يَتوانَ عن تَكرارِ المُغامَرةِ

في قولِه تعالى: ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ﴾ الرّدُّ والعوْدُ، كلاهما يَنُمُّ عن إيجازٍ في العبارةِ، وسَعَةٍ في الدَّلالةِ، ويُعدُّ ذلكَ في غايةِ البلاغةِ وجمالِ البيانِ في القرآن، فما بين الرَّدِّ والعَوْدِ، والفعلِ المبنيِّ للمجهولِ ﴿رُدُّواْ﴾ والفعلِ المبنيِّ للمعلوم ﴿لَعَادُواْ﴾ مع اللّامِ الَّتي تفيدُ التَّأكيدَ تفصيلٌ لمعانٍ أثارَها صدرُ الآيةِ الكريمةِ، بقولِه تعالى: ﴿بَلۡ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ مِن قَبۡلُۖ﴾، وقد قالوا: ﴿يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، فلو أجيبتْ أُمنيتُهم، وردّوا إلى الدُّنيا، لَعادوا للأمرِ الَّذي نهاهُمُ اللّهُ عنه، وهو التَّكذيبُ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/87.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/186.

وإنكارُ البعث، وما يَتبعُه من عذابٍ، وإنَّما تمنَّوْا ما تَمنَّوْا من شدَّةِ الهَوْلِ، فتوهَّموا التَّخلُّصَ منه بهذا التَّمنّي، فلو تحقَّقَ تمنّيهم ورُدّوا واسْتراحوا من ذلكَ الهَوْلِ، لَغَلَبتْ أهواؤهم رُشدَهم، فَنَسوا ما حَلَّ بهم ورَجَعوا إلى ما أَلِفوا منَ التَّكذيبِ والمُكابرةِ[1].

دلالةُ حذْفِ مُتعلّقِ فعْلِ الرّدِّ في قولِه تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ﴾:

اسْتئْثارُ اللهِ بعلْمِ ما أرادَ من ألطافِه بالعبادِ

لم يذكرْ بيانُ اللّهِ تعالى متعلَّقَ فعْلِ الرَّدِّ، في قولِه تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ﴾، فيكونُ السّؤالُ: رُدّوا إلى ماذا؟ وردّوا إلى أين؟ وجوابُه راجعٌ إلى أمرَيْن اثْنين: الأوَّلُ: ما أفادَه قولُه من بعدُ: ﴿لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾، فَعَوْدُهم ردٌّ لما كانوا عليه في حياتِهمُ الدُّنيا الَّتي هي مكانُ الرَّدِّ منَ الكفرِ والمعاصي، وسائرِ القبائحِ الَّتي عملوها، والثّاني: الإخبارُ منَ اللّهِ تعالى عن أمرٍ لا يكونُ، كيف كانَ سيوجَدُ ويكون، وهذا ممّا اسْتأثرَ اللّهُ بعلمه، فإنْ أَعْلَمَ بشيءٍ منه عُلِم، وإلّا طَواه، ولم يتكلَّمْ فيه[2].

دلالةُ اللّامِ في قولِه تعالى: ﴿لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾:

الاسْتغراقُ في المَنهيّاتِ والإصْرارُ على الكُفْرِ، دَيْدَنُ الكفَرةِ الفَجرةِ

أفادتِ اللّامُ في قولِه تعالى: ﴿لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾، اسْتغراقَهم في عَوْدِهم لِما عُهِدَ عنهم، أي: للَّذي نُهوا عنه منَ الكفرِ، وذُيولِه منَ المعاصي، وذلكَ لأنَّهم قد كفروا بعدَ وجوبِ الحُجَّةِ عليهم، وفي ذلك دَلالةٌ على غُلوِّهم في الإصْرارِ على الكُفرِ وعدمِ الرَّغبةِ في الإيمان[3]، وهذا العودُ لما نُهوا عنه "من فنونِ القبائحِ الَّتي من جُملتِها التّكذيبُ المذكورُ، ونسوا ما عايَنوه بالكُليّةِ؛ لاقتصارِ أنظارِهم على الشّاهدِ دونَ الغائبِ"[4].

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/87 - 88، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/186.
(2) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 2/282 - 283.
(3) الزَّجاج، معاني القرآن: 2/240، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/478.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/124.

دلالةُ نَوعِ النّهْيِ ودرجتِه، وماهيَّةِ المَنهيِّ عنه في السّياقِ:

رأسُ المَنهيَّاتِ الكُفرُ، وإنكارُ الدَّلائلِ الواضحةِ

في قولِه تعالى: ﴿لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾، أي: ما نُهوا عنه منَ الشِّركِ والكُفرِ وإنكارِ البعث، وسائرِ الفضائحِ الَّتي كانوا عليها، وسَتْرِ ما اتَّضحَ لعقولِهم منَ الدَّلائلِ على وجودِ اللّه ووَحْدانيّتِه وصِدْقِ نبوَّةِ محمَّدٍ ﷺ [1]، "ولو ردَّهم اللّه تعالى من موقفِهم ذلك إلى الدّنيا كما سألوا، وغابَ عنهم ما شاهدوه منَ الأهوال، لم يحصلْ منهم فعْلَ الإيمان وتركَ التّكذيب، بل كانوا يَستمرّون على الكُفر والتّكذيبِ"[2].

دلالةُ أسلُوبِ التّذْييلِ، في قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾:

مَن كذبَ في الأُمنِياتِ، فُضِحَ أمرُهُ في الحياةِ وبعدَ المماتِ

وقولُه تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ تَذييلٌ لما قَبلَه[3]، و"هو فضحٌ لكلماتِهم الكاذبةِ، الّتي أجراها على ألسنتِهم سوءُ الموقفِ، ولفحُ السّعيرِ[4]، ومعنى قولِه: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾؛ "أي: متّصفون بهذه الصّفةِ لا يَنفكّون عنها بحالٍ منَ الأحوال، ولو شاهدوا ما شاهدوا، وقيل: كاذبون فيما أخبروا به عن أنفسِهم منَ الصّدق والإيمانِ"[5]، وكان الأصلُ في الجُملةِ التّذييليّةِ المُؤكّدةِ أن تأتيَ من غيرِ عطفٍ، ولكنّها جاءت معطوفةً بالواو؛ للإشعارِ بحكمٍ جديدٍ عليهم بكذبٍ آخرَ غيرِ الكذبِ الواردِ في الآيةِ السّابقةِ.

بيانُ مُتعلَّقِ قولِه تعالى: ﴿لَكَٰذِبُونَ﴾ في الآيةِ الكريمةِ:

أُمنيةُ تركِ الكفرِ، لو أُعيدُوا للدُّنيا، سَفهٌ وقِلّةُ عقْلٍ

في قولِه تعالى: ﴿لَكَٰذِبُونَ﴾ أي: فيما أخبروا به عن أنفُسِهم من مضمونِ تَمنّيهم أنَّهم يفعلونَه لو رُدّوا، وفي ذلك تأكيدُ طَبعِهم على الكفرِ ومُرودِهم عليه[6]، "لأنّه هو المعهودُ منَ البشر. ولعلهم يتمنّون

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/478، والبقاعي، نظم الدُّرر: 7/87 - 88.
(2) محمد بن عمر نووي، مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد: 1/311.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/186.
(4) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 4/155.
(5) القِنَّوجيّ، فتح البيان: 4/125.
(6) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/88.

ذلك جاهلين أنّه محالٌ، على أنّ النّاس يتمنّون المُحالَ، ولو على سبيل التّحسُّرِ"[1].

أثرُ تعدُّدِ المُؤكّداتِ في جلاءِ المعنَى في قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾:

جيءَ بالجُملة الاسميَّةِ الدّالّةِ على الدَّوامِ والثَّباتِ، فالكَذِبُ سَجيَّتُهم، وقد قَوّى التّأكيدَ بإنَّ ولامِ الابتداءِ الّتي دَخَلَت على الخبر، والجملةِ التّذييليّةِ المؤكّدةِ لِما قبلَها، وتَعَدُّدُ وسائلِ التّأكيدِ على شيءٍ غيبيٍّ لا يكونُ إلّا منَ العليمِ الخبيرِ، بما كان وما سيكونُ.

مَـنْ أكّـدَ اللهُ كذِبَه في كتابِه، فـهـو بـالـغٌ في الـكـذبِ أقـصَى غاياتِه

تناسُبُ الجُملةِ المُؤكَّدةِ بعْدَ جُملةِ التّأكيدِ، مع ذِكْرِ العامِّ بعد الخاصِّ:

ذكرُ الجُملةِ التّذييليّةِ المؤكّدةِ لِما سبقَ من وصْفِهم بالكَذِبِ في السّياقِ، يتناسبُ مع ذِكْرِ العامِّ بعد الخاصِّ؛ أي: الحُكمُ العامُّ عليهم بالكذبِ دائمًا، وفي كلِّ الأحوالِ، في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾، بعد الكذبِ الخاصِّ في قولهم: ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾، وقد تضمَّن تَمنّيهم وعدًا، وهو العَوْدُ للإيمانِ باللّه ﷻ؛ فلذلك صحَّ إدخالُه في حُكمِ كَذِبهم دُخولَ الخاصِّ في العامِّ؛ لأنَّ التَّذييلَ يُؤذِنُ بشُمولِ ما ذُيِّلَ به وزيادةٍ، فليس وصفُهم بالكَذب بعائدٍ إلى التَّمنّي؛ بل إلى ما تضمَّنَه مِنَ الوَعْدِ بالإيمانِ باللّه، وعدمِ التّكذيبِ بآياته[2] ﷺ.

تـداخـلُ الـكَـذبِ وتـوالِـيـه، دليلٌ على عِظمِ الجُرمِ وتَنامِيه

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

البُدُوّ والظُّهور:

"الظُّهورُ يكون بقَصدٍ وبغيرِ قَصدٍ، تقولُ: استَتَرَ فلانٌ ثمَّ ظَهَر، ويَدُلُّ هذا على قَصدِه للظُّهور، ويُقالُ: ظهرَ أمرُ فُلانٍ، وإنْ لم يقصِدْ لذلك، وأمّا قولُه تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الرّوم: 41] فمعنى ذلكَ الحُدوثُ، وكذلك قولُك: ظَهَرتْ في وجهِه حُمرةٌ؛ أي: حدثتْ،

البُدوُّ يكونُ بغيرِ قصْدٍ، والظُّهورُ يـكـونُ بـقـصْـدٍ وبدُونِه

(1) رضا، المنار 7/294.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/187.

ولا يَعني أنَّها كانتْ فيه فظَهَرت، "ومن أسماء الله تعالى (الظّاهر)؛ هو الّذي ظهر فوقَ كلِّ شيءٍ وعلا عليه. وقيل: هو الّذي عُرف بطرُقِ الاستدلال العقليّ بما ظهرَ لهم من آثار أفعاله وأوصافه"[1]، وأمّا البُدوُّ فهو ما يكونُ بغير قَصْدٍ، تقولُ: بَدا البَرقُ، وبَدا الصُّبحُ، وبَدتِ الشَّمسُ، وبَدا لي في الشَّيءِ؛ لأنَّكَ لم تقصِدْ للبُدوّ"[2]، قال عمرُ ﷺ: "إنّي أحلفُ على قومٍ أن لا أعطيَهم، ثمّ يبدو لي فأُعطيهم"[3]؛ أي: يتغيّرُ رأيي عمّا كان عليه، وقد بدا يبدو بِداءً، من حدِّ دخَلَ، والمصدرُ على وزن الفِعال، والبُدوّ الظّهورُ[4]، وممّا تقدَّم بيانُه يتَّضحُ أنَّ استخدامَ الفعل ﴿بَدَا﴾ أَليَقُ بالسّياقِ، فأولئك الكافرونَ، عندما يوقَفون يومَ القيامة على النّار الَّتي كانوا يُنكرون، يَبدو لهم كلُّ شيءٍ كانوا يكفرونَ به ويَجحدونَه في الدُّنيا، دونَ أن يكونَ لذلكَ قصْدٌ منهم؛ بل هو أمرٌ حتْميُّ الظُّهور؛ لأنَّ القضيَّةَ قضيَّةُ إيمانٍ باللّه والبَعثِ ليوم الحساب والمآلِ، وهذا من معاني قولِ اللّه ﷻ: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾ [ق: 22].

الرَّدّ والعَوْد:

الـرَّدُّ والـعَـودُ مـن مُـفـرداتِ الـقـرآن، ولا تُغني إحداهُما عنِ الأخرى

الرَّدُّ رجعُ الشَّيءِ وعَوْدُه، والعودُ: "تثنيةُ الأمر عودًا بعد بَدءٍ، بدأ ثمّ عاد، والعودةُ مرّةٌ واحدةٌ[5]، وأمّا الفعلُ ﴿لَعَادُواْ﴾ الَّذي ورد في السّياق فهو هنا بمعنى عَوْدِ الكافرِ لِكُفره، فليسَ مُجرَّدَ الرَّدِّ والرُّجوعِ، وإنَّما هو ردٌّ ورجوعٌ مع شيءٍ يَحملُه في قَلبه، وهو الكفرُ باللّه ﷻ وبيوم البعثِ، ودلَّ على ذلك قولُه تعالى بعدَه: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾، وهو ما نَهاهُمُ اللّهُ عنه مِنَ الكُفرِ والضَّلال،

(1) ابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث والأثر: (ظهر).
(2) الرّاغب، المفردات: (بدا).
(3) عبد الرّزاق الصّنعاني، المصنّف، الحديث رقم: (16075).
(4) نجم الدّين النّسفيّ، طلبة الطّلبة: (بدو).
(5) الخليل، العين: (عود).

ولذلك كان استخدامُ كُلٍّ منَ الفعلَين ﴿رُدُّواْ﴾ و﴿لَعَادُواْ﴾ في سياقه المناسبِ من حيثُ المعنى المُرادُ، ودَورُه المُناطُ به في مَوضعِه، ولا يُجزِئُ أحدُهما عنِ الآخَرِ في تبادُلِ المواقع، ولا يخفى أنّ الفعلَ ﴿رُدُّواْ﴾ مُشاكِلٌ للرّدِّ في طلبِهم: ﴿يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ﴾، وسرُّ مجيء طلبِهم بهذا الفعل ﴿نُرَدُّ﴾؛ لأنَّ في الرّدِّ منعًا لهم منَ السّقوطِ، كما تدلُّ إحدى الاستعمالاتِ اللّغويّةِ للرّدِّ.

الإخفاء والكتم والسِّرّ:

الإخفاءُ أعمُّ من لفظَي الكَتْم والسِّرِّ في الدّلالةِ والاستعمالِ

الكِتمانُ: لفظٌ يدلّ على إخفاءٍ وسترٍ، من ذلك: كتمتُ الحديثَ كتمًا وكتمانًا. قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا ٤٢﴾ [النّساء: 42] ويقالُ: ناقةٌ كتومٌ: لا ترغو إذا رُكبت، قوّةً وصبرًا[1]، وأمّا الإخفاءُ فهو: ما يُستَرُ به كالغطاء، تقولُ: أَخْفَيْتُ الدِّرهمَ في الثَّوْبِ، ولا تقولُ: كتمتُ ذلك، وتقولُ: كتمتُ المعنَى وأخفيتُه، فالكتْمُ يختصُّ بالمعاني كالأسْرار والأخبار، فهو لا يُستعمَلُ إلّا فيهما، والإخْفاءُ أعمُّ منَ الكتمان، وأمّا السِّرُّ: فهو الحديثُ المكتَّمُ في النَّفس، قال تعالى: ﴿يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ٧﴾ [طه: 7]. والمستورُ: يختصُّ بالخُبَثِ والأعيان؛ لأنَّ الأصلَ في السِّرِّ تغطيةُ الشَّيءِ بغطاء، وهو في هذا المعنَى يشتركُ مع الإخفاء، لكنَّ السِّرَّ اسْتُعمِلَ في غيرِها تجوُّزًا لا حقيقةً[2].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كتم).

(2) العسكريّ، الفروق اللغوية: 447 - 448، والرّاغب، المفردات: (ستر)، والحسينيّ، الكليّات: 3/38، والجرجانيّ، التّعريفات، ص: 123.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد العاشر، سورة المائدة من الآية 107 إلى سورة الأنعام الآية 58
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة المائدة من الآية 107 إلى سورة الأنعام الآية 58 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 10 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-62-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 10 : سورة المائدة من الآية 107 إلى سورة الأنعام الآية 58.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-798-62-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7560922 بتاريخ 2023/12/18م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»